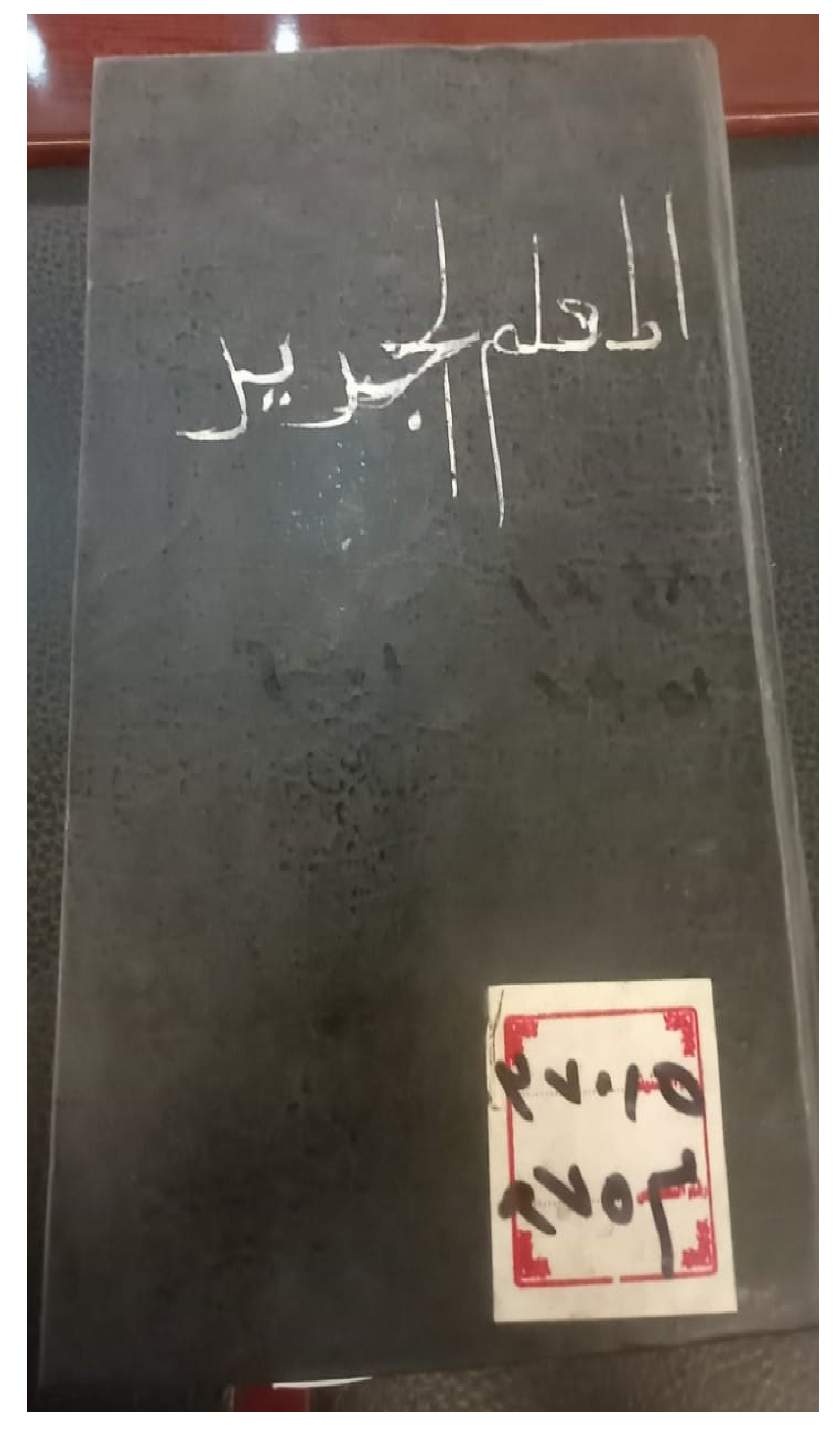
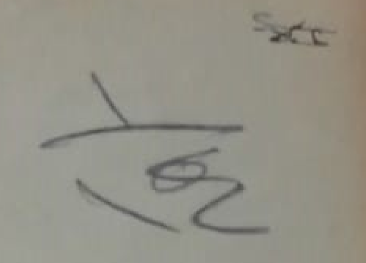
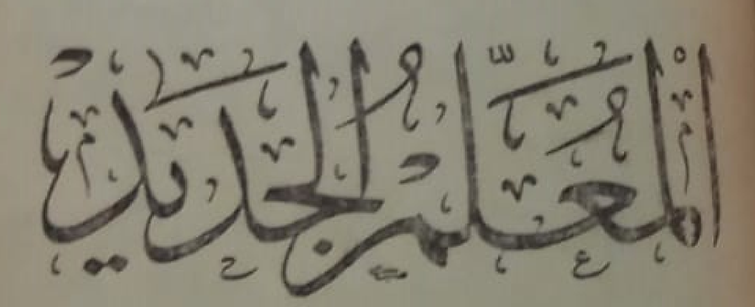

العلم الجديد
٢٧٠١٥
٢٧٥٣




المعلم الجديد

ثبت الجزء

التربية : معناها ووظيفتها

بقلم : الدكتور نورى جعفر
مدرس فى التربية بدار المعلمين العالية

يولد طفل الانسان ضعفا من جميع الوجوه . يحتاج ، لكى يستمر على الحياة الى عناية مستمرة يقوم بها الراشدون . ويكون من الناحية الجسمية، اكثر ضعفا من صغار معظم الحيوانات . فصغار القطط او أفراخ الدجاج مثلا يكتمل نموها الجسمى وتشارك كبارها فى كثير من اوجه نشاطها بعد ولادتها بأسابيع بينما يستمر طفل الانسان وهو عالة على والديه بعد ميلاده بعدد من الاشهر ليس بالقليل . هذا الضعف البادى على الانسان من الناحية الطبيعية مصحوب بضعف آخر من الناحية الاجتماعية . اذ يولد الطفل وليس له لغة او قومية او دين او أى معتقد من المعتقدات السياسية :.

غير ان الطفل يعرض عن ضعفه البارز من الناحية الجسمية بمرونته وقدرته على التعلم من الناحية الاجتماعية . فكأنه قد زود بتلك المرونة لكى يتلافى نواحى الضعف فى حالته الجسمية . فالشىء البارز فى وليد الانسان بالمقارنة مع صغار الحيوانات . هو ان ذلك الوليد كلما نما زادت درجة مرونته وقدرته على التكيف للمحيط وتكييفه . اما الحيوان فكلما نما قلت درجة مرونته وتضاءلت قدرته حتى على تكييف نفسه للبيئة بله تكييف البيئة لنفسه .

يولد طفل الانسان فى بيئة ذات وجهين يصعب فصلهما . يدعى الوجه الاول بالبيئة الطبيعية كالارض والماء والهواء ؛ والوجه الثانى بالبيئة الاجتماعية كالدولة والعائلة والمجتمع وغيرها . ليست البيئة الاولى من صنع الانسان ، هذا من جهة ، كما ان الحيوان يشاركه التمتع بكثير من مظاهرها من جهة اخرى . غير ان الانسان استطاع ان يخضع البيئة الطبيعية المشار اليها وان يسيطر عليها ويستخدمها لمصلحته استخداما كبيرا . وقد كان استخدام

الانسان القديم قوى الطبيعة سلبيا . اي انه كيف نفسه لها عن طريق الخضوع لبعض مظاهرها التي أخافته بواسطة استرضائها عن طريق الدور وتقديس بعض الاشجار والحيوانات او عن طريق السحر . بينما تمكن الانسان الحديث بواسطة تقدم العلم – ان يكيف قوى الطبيعة لارادته عن طريق اختراع كثير من الآلات والادوات وعن طريق البخار وقوى الزيت والكهرباء .

اما الوجه الآخر من وجهي البيئة التي يولد الانسان فيها فهو الوجه الاجتماعي الذي يميز الانسان عن كثير من المخلوقات الاخرى . فالدولة والعائلة واضرابهما منظمات اوجدها الانسان نفسه لاستمرار حياته من الناحية الاجتماعية . على انه وان كان لكل من تلك المنظمات عدد من الوظائف الخاصة بها ، فانه ليس من السهل وضع حد فاصل لعزل وظائف الواحدة عن وظائف الاخرى . وكلما تعقدت حياة الانسان زاد عدد تلك المنظمات من جهة وصعب فصل وظائف بعضها عن وظائف البعض الآخر من جهة أخرى .

يتضح ضعف الطفل ليس بمقارنته بصغار الحيوانات فحسب وانما ايضا بالنظر اليه من حيث علاقاته بالراشدين الذين يكونون المجتمع الذي يعيش فيه . فللراشدين في كل زمان ومكان لغة تميزهم عن غيرهم ولهم دينهم وتقاليدهم . يسعى هذا المجتمع الى تنشئة أطفاله تنشئة تتمشى وتقاليده في الحياة وهو لا يحاول ان يجعل اطفاله اقوياء في الاجسام فقط وانما اقوياء في ايمانهم بسلامة معتقداتهم ايضا . اذ ان كل مجتمع توصل العلماء الى معرفته يؤمن ايمانا قويا بصحة عقائده في الدين والسياسة .

ينقل المجتمع تراثه الاجتماعي في الدين والسياسة والاخلاق من جيل الى جيل بوسائل شتى منها – بالاضافة الى المدرسة – الاهتمام بتخليد أسماء عظماء البلد عن طريق اقامة الحفلات التذكارية ونصب التماثيل وغيرها – وذلك للعمل بصورة مستمرة على ايقاظ العزة القومية في نفوس الناس . هذا الى ان اعمال العظماء عادة تعبر بجيدة عن مواطن

٢٠١

الضعف ولا يسمح والحالة هذه ان تمتد اليها ألسنة النقد . وتختلف الامم كثيرا فى مدى نقدها لحياة عظمائها . غير أن الظاهر يشير بانه كلما تقدمت الأمم زاد اهتمامها بمعالجة بعض نواحى الضعف فى حياة عظمائها وقل تعظيمها لهم تعظيما مبنيا على العاطفة .

ان التربية هى حلقة الوصل بين الراشدين وصغارهم من بنى الانسان . وهى على نوعين :ـ مدرسية وغير مدرسية . والتربية ، سواء أكانت مدرسية أم غير مدرسية شئ معنوى لايمكن ادراكه بالحواس وانما لا تنقل من شخص الى شخص كما تنقل الادوات نقلا ماديا من مكان الى مكان ولكن يتم نقلها عن طريق الاشتراك . والغريب فى أمر التربية انها تزداد كلما زاد عدد المشتركين فيها عكس غيرها من الامور المادية . فقطعة القماش مثلا يقل مقدار ما يصيب الفرد منها كلما كثر عدد المشتركين فى تقسيمها . اما التربية فعلى العكس من ذلك تماما . ومثلها فى هذا الباب كمثل الصداقة . فالتربية اذن هى الوسيلة الوحيدة التى يحافظ المجتمع بواسطتها على تراثه الاجتماعى وينقله من جيل الى جيل . اننا نفضل ان نسمى هذا الوجه من اوجه التربية بالمحافظة على التراث الاجتماعى .

تلقف الناشئة عقائدها من المجتمع الذى تنشأ فيه كما تلقف عاداتها فى المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك . . وتصبغ تلك الناشئة الغريبة عن عالم الراشدين وما لديهم من لغات وقوميات وأديان بصبغة ثقافة البلد الذى تولد فيه وتنشأ خاضعة لنظمه السياسية والدينية . ذلك ان المجتمع ، كما سلف وذكرنا ، يسعى لتنشئة صغاره تنشئة تتفق هى وتراثه الاجتماعى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الاطفال أنفسهم يودون فى العادة ان يعيشوا منسجمين مع مجتمعاتهم عن طريق مشاركة تلك المجتمعات مثلها العليا فى الدين والاخلاق . فالعقائد اذن وسائل يراد بها الانسجام مع الجماعة . غير ان المرء سرعان ما يخضع لتلك العقائد خضوعا منقطع النظير . فمن أجلها يحيى ، وفى سبيل الدفاع عنها قد يفنى . وبعبارة أدق ، يصبح المرء نفسه آلة تسير عقائده بهذا الاتجاه أو ذاك . فيفقد هيمنته عليها ويصبح

بطواعالها بالامر بامرها ويتجه انى وجهته . وتاريخ الحروب خير شاهد على ما للعقيدة من أثر فى فناء كثير من الافراد والجماعات .

ان لحرب العقائد ميدانا آخر ـ غير ميدان الصراع الدموى العنيف، هو ميدان الفكر اذ الف منذ ان اهتدى الانسان الى الكتابة والطباعة ، مئات الكتب دفاعا عن بعض المعتقدات ونقدا لغيرها . ولا يعدم المتتبع للنقد الفكرى من ان يستنتج بأن كثيرا من الحجج التى يقدمها المدافعون عن عقائدهم وسائل استنبطت بعد ان سبق للعقيدة ان سيطرت على صاحبها . ولو ان هؤلاء المدافعين قدر لهم ان يتشربوا بالعقائد التى يهاجمونها لمخالفتها عقائدهم لما اعوزهم على ما نظن ايراد حجج كثيرة لاثبات صحتها . فكثير من الناس اذن صرعى عقائدهم . تعوز الكثيرين منهم فى كثير من الاحيان القدرة على مناقشة العقائد التى تختلف عن عقائدهم مناقشة خالية من روح التعصب ، متحاشية جرح شعور الآخرين قصدا أو عن غير قصد .

اننا نعتقد بان للتربية واجبا آخر بالاضافة الى الواجب الذى سميناه بالمحافظة على التراث الاجتماعى . هذا الواجب يتعلق بحاضر الامة فى وقت من الاوقات . فلاينبغى للتربية لكى تحافظ على ماضى الامة ان تهمل حاضرها أو أن تقلل من اهميته ـ وانما يجب ان تبذل كل جهد مستطاع لجعل ذلك الحاضر اكثر سموا مما هو عليه . ليس حاضر الامة مجرد شىء يأتى متأخرا فى الزمن عن ماضيها ولا هو وليده . انما هو الحياة تاركة الماضى وراءها . ثم ان الحاضر ايضا يتأثر فى الماضى ويؤثر فيه باستمرار . كما انه يؤدى على الدوام الى المستقبل .

ولا يتطلب اهتمامنا بالحاضر اهمال الماضى ولا الاقلال من أهميته ولكنه يقضى حتما الا نجعل الماضى عقبة فى تقدم الحاضر او ملجأ للتخلص السلبى من اوصابه . اننا لانجيز فى تدريس التاريخ مثلا ، ان تتخذ من حوادث وقعت فى زمانها وتمت فى ظروفها المعينة وسيلة لتصديع الوحدة العراقية . هذا الى انه ينبغى ان نعتبر آراء المؤرخين آراء تحتمل الخطأ والصواب . وانها مهما حاول صاحبها ان يتجرد عن نزعاته الدينية والسياسية

مصبوغة بصبغة الجماعة التي ينتمي اليها المؤرخ . ان المؤرخ مهما حاول النظر الى الوقائع التاريخية نظرة موضوعية فانه لا يستطيع التجرد من عواطفه مطلقا . وانما قد يتمكن من تخفيف حدتها . كما انـه يميل الى الاستشهاد بالوقائع التي تلائمه . اننا لا ندعو مطلقا الى اعادة كتـابة التاريخ أو تغيير محتوياته . وانما نقترح ان يتوسع المدرس في أوجه التاريخ التي ساهم فيها الجميع بغض النظر عن خلافاتهم . فيعتني مثلا بالحركات العلمية وبالتطور الفكري ويؤكد على كافة الامور التي من شأنها ان تبث روح الالفة والمواطنة بين أبناء البلد الواحد فما احوجنا الى ذلك في وقت نريد ان نحتل مكانتنا تحت الشمس . كما ينبغي على المدرس ايضا ان يربي ملكة النقد الحر عند الطالب ومعالجة مشكلاته الاجتماعية بروح علمية بعيدة عن النزوات .

اننا نعيش في امـة مزقتها التفرقة الدينية والسياسية واوجـدت بين صفوفها فجوات واسعة لايصعب على الذين يريدون استغلالها لمصالحهم ان يتسربوا من خـلالها . يخطـأ كثيرا من الناس اذا ما اعتقـدوا بأن مشـاكل العراق اقتصادية بحتة . وانهم ليوهمون انفسهم ويرتكبون اخطاءا ليس من السهل اصلاحها اذا ما حاولوا ظاهرين او متسترين اثارة الشعب ضد نفسه مساعدة الفلاح والعامل . اننا نعتقد بان مشاكلنا في اساسها ثقافية وخلقية . ولا تصلح وضعنا سوى تربية مستقيمة هدفها بث الالفة والتعاون بين ابناء الشعب جميعا . تربية تقضي على كافة العوامل التي تؤدي الى ضيق التفكير والانانية واهمال الصالح العـام . تربيـة تهذب الخلق وتصقـل الشعور ، وتغذي التفكير الحر .

بغداد

نوري جعفر